

الفصل الخامس

حياتي زوجة

غادرت متوجهة إلى نيويورك ومستعدة لأبدأ حياة جديدة، لكنني كنت قلقة من هذه الحياة مع زوج مثل حمزة. ركبت سيارة الأجرة مع أبي وعزمي، إلا أننا لم نتحدث بالمرة في طريقنا للمطار. وبعد بضع لحظات أدار السائق الراديو ليكسر هذا الصمت، كانت فيروز تغني كلمات تقول فيها: «زوروني كل سنة مرة، حرام تنسوني بالمرة» أشحت بوجهي عن أبي؛ حتى لا يراني أبكي.

ركبنا أنا وعزمي الطائرة التابعة للخطوط الملكية الأردنية. لم أكن قد سافرت إلى الخارج في طائرة من قبل، لكنني لم أشعر بالخوف، بل شعرت بهدوء كئيب. وقفت مضيئة الطيران في مقدمة الطائرة، وقالت دعاء السفر، ثم أقفلنا، وبينما نحن في الجو وضعت سماعة الأذن لأمضي الوقت. استمعت إلى أغنية فيروز نفسها، ما جعلني أبكي قليلاً ويدي على وجهي، متسائلة: كم من الوقت سيمضي قبل أن أرى عائلتي مجدداً. ثم نظرت إلى الغيوم تمر بالنافذة، وشعرت بأن الطائرة تبتعد أكثر وأكثر عن الوطن الوحيد الذي عرفته، وتساءلت: متى سأعود ثانية؟، هل بعد أشهر أم سنين أم لن أعود أبداً؟

تخيلت نفسي أسافر فوق المحيطات مع (أحمد) وأجلس بقربه في الطائرة نتحدث عن بدء حياة جديدة معاً، فقد كان ذلك أقصى أمانينا في أثناء سنين عدة، لكن من المحتمل الآن ألا أراه ثانية، تمنيت بشدة لو أن الأمور أخذت مجرى آخر، لكن ها أنا جالسة بقرب عزمي في طريقني للعيش مع حمزة. لم نتحدث كثيراً في أثناء الرحلة، ويبدو أنه فهم أنني أريد أن أنفرد بنفسني، ولم يتطفل علي عندما كنت أبكي بصمت، ولم نتحدث إلا عندما أتت مضيئة الطيران تسألنا: ماذا نريد أن نأكل، أو عندما أردت أن أنهض لأتمشى أو أستخدم المراحيض.

هبطنا في نيويورك يوم الأحد عند الساعة ٤:٠٠ مساءً، وهناك قابلنا حمزة في المطار. عانقني وقبّل خدي، لكنني لم أكن له أي مشاعر، لذلك لم أرد له قبلته. ثم سلمت على أخيه الآخر (رمزي) وذهبنا جميعنا إلى الشقة في منطقة (ستين آيلاند) حيث سأعيش أنا وحمزة، وهناك أعد لنا حمزة طعام العشاء، وجلسنا لتحدث قليلاً. كان رمزي يعيش مع حمزة في



الشقة نفسها، لكنه انتقل للعيش في شقة أخرى قبل أسبوعين من وصولي، وكان عزمي سيعيش معه. كان رمزي طالباً جامعياً في عامه الثاني، وكان عزمي يحضر نفسه للانضمام للدراسة الجامعية؛ لكي يدرس ويعمل في مختبر طبي. وكان حمزة يدفع رسوم تعليمهما، عندما انتهينا من تناول الطعام أوصل حمزة أخويه بسيارته إلى شقتهما، فلم يمتلك أي منهما سيارة. اعتدت أنا في ذلك الوقت أن أغسل الصحون، وأنظف طاولة المطبخ، وبعدها أخذت حماماً سريعاً، وارتديت بجامتي، وجلست في غرفة المعيشة أنتظر عودة حمزة. وعندما عاد تعجب من العمل الشاق الذي قمت به، وقال: إنه كان يتوقع أن يساعدني على التنظيف أيضاً.

«لا تنسي أنني عشت مدة طويلة رجلاً عزباً، وأعرف فعل هذه الأشياء أيضاً».

ابتسمت بخجل.

«أعرف ذلك، شكراً لك، لكنني أعمل بسرعة، فقد كنت أعنتي بعائلة بأكملها».

«يبدو أنك حصلت على خبرة جيدة».

«آه، نعم، ومن دون أي شكوى» أخبرته بذلك لأتجنب الجدل معه.

ذهبنا لننام دون أن نقول كلمة أخرى.

وفي صباح اليوم المقبل، الأحد، كان حمزة في إجازة، وأخبرني بأنه كان يخطط لأخذي أنا وعزمي في جولة إلى مانهاتن على متن جسر، إلا أن رمزي كان مشغولاً بدراسته، ولم يستطع الذهاب معنا، أخبرني حمزة بأن أجهز نفسي عند الساعة ١١:٠٠ صباحاً؛ لذلك استحممت بسرعة، وارتديت ثوباً طويلاً وحجاباً؛ حتى أغطي جسمي بأكمله. جلست في المقعد الأمامي، وجلس عزمي في الخلف، وقاد حمزة السيارة، وفي طريقنا نظرت خارج النافذة إلى كل تلك النساء الأمريكيات غير المتحجبات، وتساءلت: كيف ستكون ردّة فعلهن نحوي؟ لكن عندما ركبنا الباخرة كنت مدهوشةً ومسرورة، عندما اكتشفت أن الناس بيتسمون لي. كان ذلك قبل الحادي عشر من أيلول بكثير؛ لذلك لم يكن الناس يتجنبون المسلمين خائفين، كما يفعلون الآن، على الأقل بحسب خبرتي، مررنا بتمثال الحرية و(إليس آيلاند) واقتربنا من صف من ناطحات السحاب، وأمضينا اليوم نتمشى حول مانهاتن، ثم رجعنا إلى المنزل في المساء.

في صباح يوم الإثنين عند الساعة ٦:٣٠ صباحاً سمعت صوت الدش يُدار، فنهضت

لأعنتي بزوجي، كما تعلمت من الوالدة أن أفعل. بحثت في خزانته، وأخرجت بذلة مع ربطة عنق مناسبة، ثم كويّت ملابسه، وتركتها مرتبة على فراشه، وذهبت إلى المطبخ لأعد فطوراً تقليدياً كبيراً يتكوّن من جبنة بيضاء وزيت زيتون وزيتون وزعتر وشرائح طماطم وخيار وشاي. وعندما انتهيت من كل ذلك رجعت إلى غرفة النوم في لحظة خروج حمزة من الحمام. ألقى نظرة على الفراش قائلاً:

«لا أريد أن أرثدي هذه الملابس اليوم».

«حسنًا. سوف أجلب لك ملابس أخرى».

«لا تتعبي نفسك، سوف أجلبها بنفسني».

«لقد أعددت الفطور».

«أنا لا أتناول الفطور، سوف أتناول بعض القهوة وكعكة قرفة في كافيتريا المستشفى، كُلي أنت وحدك، فساغادر الآن، ولا تنتظريني؛ لأن لدي وردية مسائية اليوم».

حاولت أن أتعرف إلى حمزة أكثر، عندما يكون في المنزل. فعلى الرغم من أنني لم أرد الزواج منه إلا أنني عالقة معه الآن؛ لذلك طرحت عليه أسئلة، وأعددت له طعاماً يمكن أن يعجبه، لكنه أجابني بأنه لا يهتم كثيراً بنوع الطعام، وسيأكل أي شيء أعده. أردت أن أعرف شيئاً عنه وعن الأشياء التي يحبها؛ حتى أحاول أن أكون زوجة صالحة، لكن على الرغم من كل محاولاتي لم يبدُ مهتماً بأكثر من تواصل سطحي معي، ولم يرغب في تشارك أي شيء. فقد أمضيت معظم وقتي وحيدة، سواء كان حمزة في الشقة معي أم لا. فكرت في الرحيل، لكن لم أعرف إلى أين أذهب، لذلك لم يكن في يدي حيلة إلا البقاء معه.

وفي إحدى الأمسيات كانت هناك حفلة لجميع سكان عمارتنا وعائلاتهم، لكن أمرني حمزة بأن أبقى في الشقة، كنت أجلس بالقرب من نافذة المطبخ، حيث أمضيت معظم نهاري أتفرج على المارة، الذين كانوا غافلين عن السجن الذي أعيش فيه. وفي تلك الليلة رفعت ستار النافذة قليلاً، وانحنيت نحو عتبة النافذة لأستمع إلى الضحك والحديث القادم من أسفل. وبعد بضع ساعات، عندما توقفت الأصوات المرححة حضر حمزة إلى الشقة يحمل معه طبقاً من الطعام.

«لقد أحضرت لك هذا، وأخبرت الأطباء الآخرين بأنك لم تتمكني من حضور الحفلة؛ لأنك كنت متعبة».

«أهًا».

لم أعرف ماذا أقول، لذلك أخذت الطبق بصمت، وتناولت العشاء. لقد شعرت بحزن شديد؛ لأنني أحب أن ألتقي أناسًا من ثقافات مختلفة؛ لأتعلم منهم، وأعرف معلومات عن بلدانهم، وأعد أطباق طعام مختلفة، فقد أحاط بنا أناس من بلدان كثيرة مختلفة، لكن لم تتسن لي الفرصة، وأنا مع حمزة للتفاعل معهم ومصادقتهم.

شغلت نفسي خلال الأسابيع القليلة اللاحقة بتزيين شقتنا الصغيرة. فعلى الرغم من أنني كنت محبوسة في الداخل معظم الوقت إلا أنني أردت أن أبدو مبتهجة قدر الإمكان، وضعت غطاء مائدة مزخرفًا بالزهور وذا حواشي من أشرطة الزينة على طاولة المطبخ، وعلقت الستائر، ووضعت صور بط صغيرة على الحائط، وعلقت قطعة قماش مربعة مكتوبًا عليها كلمة (الله).

وفي غضون أشهر قليلة أصبحت حاملاً مرة أخرى، لم أكن مهتمة بممارسة الجنس مع حمزة، لكن رضخت لضغط العادات والتقاليد. فقد كان يتوقع أن أنجب أطفالاً، فأنجبت أطفالاً، في الحقيقة لقد رغبت دائماً في أن أصبح أمًا، لكنني كنت أتخيل هذه اللحظة شيئاً مختلفاً تماماً في طفولتي، فلم أتوقع إنجاب ذرية من شخص لا أحبه، وتساءلت: أي من سمات حمزة سوف يرث هذا الطفل؟ ربما أستطيع إزالة أي شيء مكروه في أثناء تربيته له، لكن على الرغم من هواجسي كنت متأكدة من أنني سوف أحب طفلي.

عندما أصبح بطني يكبر سمح لي حمزة بالخروج قليلاً، ففي إحدى الأمسيات أخذني إلى منزل زميل له يدعى (أبو شكري) وزوجته (روز). كانت روز من بورتوريكو، لكنها كانت تتكلم الإنجليزية والقليل من العربية. ثم غادر الرجال وحدهم، وتركوني مع روز. اهتمت صديقتي الجديدة بي كثيراً، وحاولت أن تجعلني أشعر بأني شخص مميز.

«فدوى، دعيني أزيّنك!».

عرفت أن حمزة لن يعجبه الأمر إذا رأني واضعة المكياج.

« لا أعتقد أن تلك فكرة جيدة».

«هيا! سيكون الأمر ممتعاً. أنت لا تضعين مكياجاً نهائياً، انتظري، وسترين كم ستصبحين

أجمل!».

وبعد محاولات كثيرة لإقناعي استسلمت، وسمحت لها بأن تضع على وجهي طبقة سميكة من ظل العينين الأزرق وحمرة زهرية وأحمر الخدين. وعندما انتهت التقطت صورة لي كنت فيها مرتبكة قليلاً وجدية، وكنت أمل أن يمضي حمزة وقتاً أطول يتحدث مع أبي شكري.

«شكراً جزيلاً لك، لكن أرجوك ألا تري الصورة لحمزة، فهو لا يحب أن يرى المكياج على وجهي» قلت لها ذلك، بينما نظفت وجهي بسرعة بفوطة مبلولة بماء دافئ.

جاء حمزة إلى الغرفة، وأخبرني بأنه حان وقت الذهاب، لكنه لم يلحظ أن وجنتي وجفني كانا محمرين من الفك، لذلك أفلتت هذه المرة، لكن بعد بضعة أيام دخل حمزة الشقة، وأغلق الباب خلفه، مشى نحوي ممسكاً في يده صورة، ثم رماها بأصبعيه، وأرسلها في الهواء نحوي. وقفت بصمت أشاهد الصورة تقع على الأرض على وجهها مع الأسف، لكنني عرفت ما فيها.

«ما هذا يا فدوى؟ أنت تعرفين أنني لا أحب المكياج. هل تعتقدين أن تسخري مني هكذا أمام أصدقائنا؟ سوف أريك أن عليك أن تحترميني، لذلك لا يسمح لك برؤية روز مرة أخرى».

ظللت صامته، فقد عرفت أن هذه الصداقة الجديدة لن تستمر طويلاً. كان حمزة متسلطاً كثيراً، وكان يخاف من أن أنشئ علاقات حميمة مع أي واحدة من النساء، جاء أصدقائنا إلى شقتنا، وكان عليّ أن أخبرهم بأنني لن أستطيع زيارتهم بعد الآن.

لم يكن لدي الوقت الكافي لأفكر في هذه الخسارة؛ لأنني كنت أستعد لقدم مولودي الجديد. ففي ٣١ تموز ١٩٨٨م ولد طفلي الأول (يوسف). جلب حمزة كومة من الحفاضات القماشية إلى الشقة، وأعطاني إياها، قائلاً بفخر: إنه لا يقبل أن يرتدي ابنه حفاضات؛ لأنها غير صحية وغالية.

«وأنت أيضاً يا فدوى، في المنزل طوال اليوم لا تفعلين شيئاً؛ لذلك لا مشكلة لديك في

غسلها».

جرت العادة أن تبقى الأم مع ابنتها لتساعدها على الاعتناء بطفلها الجديد، لكن بدل ذلك قرر حمزة أن يحضر والده بالطائرة؛ لأن يوسف هو حفيده الأول. فبدل أن أحصل على مساعدة كان لدي طفل وثلاثة رجال لأعتني بهم.

بل أصبحوا طفلاً وأربعة رجال. فبعد وقت قصير من انتقال (حماتي) للعيش معنا قرر رمزي وعزمي أن يبقيا معنا طوال مدة وجود والدهم عندي في البيت أيضاً، وإضافة إلى سريري أنا وحمزة كان لدينا سريران مفردان في الصالة، وأيضاً الأريكة في غرفة المعيشة. وكنت كل ليلة بعد أن أضع يوسف في فراشه لينام أستلقي على سريري، وأضع وسادة على رأسي محاولة أن أكتم صوت شخير الرجال الأربعة، وعندما لا ينجح ذلك كنت أجلس على أرضية الحمام، وأغلق الباب؛ لأهرب من هذا الإزعاج.

وخلال النهار بين أوقات إرضاع يوسف واللعب معه كنت أطبع أوراقاً لرمزي لحصصه الجامعية. فلم يكن لديه أو لدى عزمي آلة كاتبة في المنزل، أما أنا فكانت لدي واحدة، كانت أعمدة الطباعة تعلق أحياناً ما يجعلني أتوقف عن الطباعة، وأسحبها إلى أسفل، لقد كنت خجولة كثيراً من أن أخبر رمزي بأن ليس لدي وقت لتساعده أو أخترع أي حجة أخرى، لذلك ابتسمت له، وأخبرته بأنه يسرني أن أساعده.

عندما بلغ عمر يوسف ستة أشهر نقل حمزة ليعمل مدة شهر في مستشفى في ولاية كانا تيكيت- نيويورك. وعندما رجعنا إلى ستيتن آيلند كنت حاملاً بطفلي الثاني، على الرغم من أننا كنا نستخدم طرقاً لتحديد النسل. لكن اتهمني حمزة بأنني تعمدت أن أحمل بهذا الطفل.

«أنا لا أصدق أنك أخذتِ حبوب منع الحمل! أعتقد أنك فوتتِ بعض الأيام!

«أنا حامل الآن يا حمزة! ماذا تريدني أن أفعل؟ أجهض الطفل؟».

«لا، فأنت تعرف أن الإجهاض حرام في الإسلام، وليس لدينا خيار آخر إلا أن نرزق بهذا الطفل.».

في ربيع عام ١٩٨٩م انتقل أخي البكر للعيش في ستيتن آيلاند. اسمه (هشام) لكننا أطلقنا عليه اسم (سام). وبينما كان سام يبحث عن مكان يعيش فيه أقتع حمزة أخاه بأن يسمح لسام بالبقاء معه، لكنه لم يسمح له بأن يبقى معنا خوفاً من أن يأخذني أخي للتبضع، أو يعلمني استخدام المواصلات العامة. وهكذا بقي سام مع أخي حمزة مدة شهرين، لكن بعد

ذلك أخبرني حمزة فجأة بأن على سام الانتقال للعيش في مكان آخر، ولم يكن حتى يسمح لسام بأن يزورني.

في السابع من أيار احتفلنا بعيد الفطر الذي دائماً ما نقيم فيه مأدبة كبيرة، وتبادل الهدايا. اتصل سام، وسأل إن كان يستطيع الحضور ليعطيني هدية، كان حمزة سيصل المنزل متأخراً، لذلك أخبرت سام بأن يحضر عند الساعة ٤:٠٠ مساءً؛ لأنني لم أرغب في أن أخبره بأن حمزة لا يريد أن يزورنا. لكن وصل سام متأخراً قليلاً، ورجع حمزة للمنزل أبكر من المعتاد، والتقى الاثنان في الممر. غضب حمزة كثيراً، وأمر أخي بأن يغادر، ولم يستطع سام أن يتحدث إلي إلا وهو واقف في الممر وأنا عند المدخل، جعلني هذا أبكي لأنني شعرت بالذل. «لا تبكي يا أختي الصغيرة، لقد أحضرت ليوسف هذه الهدية، ولك مئة دولار اشتري ما يحلو لك، عيد سعيد!» وعانقني أخي بسرعة، ثم رحل.

عندما شاهدت سام يرحل شعرت بغضب شديد من حمزة، استدرت راجعة للشقة، وكان حمزة واقفاً ينظر إلي كأن لم يحدث شيء.

«أريد أن أعود للأردن يا حمزة، لن أبقى هنا معك بعد الآن».

«لا تكوني سخيطة يا فدوى، ما خطبك؟ هل أثرت فيك هرمونات الحمل؟».

«أريد أن أرجع إلى وطني».

لم يعرف حمزة ماذا يفعل بي، لذلك اتصل بأبيه، ورتب زيارة أخرى له. وعندما وصل (حماتي) إلى شقتنا عانقني، ووضع يديه على كتفي، قائلاً:

«لا تقلقي يا فدوى، أعرف أنك مشتاقة إلى عائلتك، وهم لم يروا يوسف الصغير بعد. سوف أسافر للأردن معك، لكن عليك أن تخبري والديك بأنك جئت لإمضاء عطلة فقط».

بعد أسبوع من ذلك سافرت أنا ويوسف للأردن مع والد حمزة. بقيت في منزلهم، ثم زرت والدي في اليوم المقبل. وفي الواحد والثلاثين من تموز احتفلنا بعيد ميلاد يوسف الأول، كانت أمي وسميرة وأولادها وأخوات حمزة ووالداه موجودين. أحضرنا كعكة كبيرة مزينة بحلوى برتقالية صغيرة مغطاة بالسكر، ثم وضعت أنا شمعة واحدة كبيرة في وسط الكعكة وشمعات عدة صغيرة على الطرف، كان ذلك من اللحظات السعيدة القليلة التي حظيت بها

في تلك المدة من حياتي، فقد كنت أحدث مع عائلتي، وأستمع للصغار يمرحون، ويضحكون بحرية.

بعد بضعة أيام توقف الطفل الذي في بطني عن الحركة، فأخذني (حماتي) إلى المستشفى، ووضعوني في غرفة وحدي لم يجرؤوا أي فحوص، بل شبكوا قسطرة وريدية في يدي، وانتظروا ليروا إن كان الطفل سيتحرك ثانية، ولم يسمح لي بتناول الطعام إلا في أوقات طعام معينة، طلبت من إحدى الممرضات أن أتناول بعض البسكويت، لكنها أخبرتني بوضوح بأنه ليس وقت تناول الطعام، وأن علي أن أنتظر على الرغم من أنني حامل. حضرت سميرة وأمي ليزوراني، وأخبرتني بأنني جائعة، ثم ذهبت سميرة إلى مطعم خارج المستشفى، وجلبت حساء مع رز وصدور دجاج، إضافة إلى كعك محلي ومكسرات وبرتقال أكلتها كأني لم أتناول الطعام منذ عام. بقيت في المستشفى أربعة أيام، ثم بدأ طفلي بالتحرك ثانية.

في نهاية شهر آب رجعت أنا ويوسف إلى الولايات المتحدة، لقد أردت بشدة أن أخبر والدي وأخواتي بمعاناتي من زواجي بحمزة وشعوري بأنه يقتلني ببطء، وخوفي المتزايد من ألا أشعر بالسعادة ثانية. لكنني كنت أعرف الإجابة، فوالداي كانا سيبتسمان، ويخبراني بأن أصبر، وأقبل الوضع، فحمزة يمكن أن يتغير. إضافة إلى ذلك، أنا الآن أم، ولا يمكنني أن أفكر في نفسي فقط؛ لذلك لم أقل شيئاً، ورجعت إلى سجن.

بعد ثلاثة أيام فقط من رجوعي لبيتي كان علينا الانتقال؛ لأن حمزة لم يعد طالباً الآن. انتقلنا إلى منزل في سايبرس-بيويورك كان ذلك المنزل كبيراً، ويحتوي على ثلاث غرف نوم وغرفة معيشة ومطبخ وحمام وتسوية واسعة فيها غرفة غسل وحمام آخر، وكان للمنزل فناء خلفي كبير ليلعب فيه الأطفال، عندما يكبرون. خلال انتقالنا كان علي أن أحزم ملابسني والصحون وألعاب يوسف، إضافة إلى المهام المعتادة من تنظيف وطبخ واعتناء بيوسف، لكن بعد بضعة أسابيع من انتقالنا جاءني المخاض، وعندما أدركنا أن الطفل على وشك القدوم اتصل حمزة بأخويه ليعتني بيوسف. وفي السابع عشر من أيلول ولدت ابني الثاني (أنس) في المستشفى نفسه في ستين آيلاند وعند الطبيب نفسه الذي ولد يوسف.

عندما بلغ أنس شهره الأول جاءت حماتي لزيارتنا، وفي غضون ذلك كان علي أن أغسل ملابسها، وأطبخ لها، إضافة إلى تنظيف المنزل والاعتناء بولديّ ذوي العام الواحد والشهر

الواحد. أصبحت حماتي تغار مني كثيرًا، وكانت تضع عينها على كل شيء أمتلكه في المنزل، في أحد الأيام رأت بطانية لي على سريري، وطلبت من حمزة أن تأخذها، لكنه قال لها: إنه سيشتري لها واحدة جديدة مثلها، إلا أنها أرادت بطانيتي بالذات، وليس واحدة جديدة، وطلبت منه أن يعطيها إياها، وفي عطلة نهاية الأسبوع أخذنا حمزة إلى مركز التسوق على أمل أن يقنع أمه بأن لا فرق بين بطانية جديدة والبطانية التي على سريري. كان الجواب ردًا في الخارج؛ لذلك ارتديت معطفًا ثقيلًا، وقررت حماتي بسرعة أنها تريده.

«دعيني أجرب معطفك يا فدوى».

«لكن معطفي صغير كثيرًا عليك يا حماتي، وليس بمقاس جسمك».

في الحقيقة كان المعطف أصغر أربع مرات من مقاسها، لكنها أصرت أن تجربه، وأقحمت ذراعيها في كمي المعطف. بعد ذلك تخلت عن المعطف وعن البطانية أيضًا.

كان لدي آلة كاتبة قديمة كنت أستخدمها لأرفه عن نفسي، وكان لدي دفتر يوميات مكتوب بخط اليد بالعربية، وكنت أطبع بالإنجليزية أردت أن أتأكد من حفاظي على مهارات الطباعة واللغة العربية التي عملت جاهدة لأطورها. وساعدني ذلك أيضًا على ممارسة اللغة الإنجليزية، فعلى الرغم من عدم قدرتي على الاحتكاك مع الناس كثيرًا إلا أنني اعتقدت أنه من المفيد أن أتعلم المزيد عن اللغة الإنجليزية. رأيت حماتي في ظهر أحد الأيام أطبع، بينما كان يوسف وأنس نائمين، وقررت أن تأخذ الآلة الكاتبة معها للأردن؛ لتعطيها لابنتها إرما. ولقد كنت خائفة من أن تأخذها في أثناء تفقدي للولدين؛ لذلك، وبينما كانت غافلة عني كسرت عمودين من أعمدة الطباعة؛ حتى لا تعمل الآلة الكاتبة. ثم أخبرتها بأن الآلة قديمة، ولا تعمل، لكنها لم تصدقني، فأخذتها إلى شقة ولديها، وطلبت منهما معاينتها. أكدا لها أنها معطلة، لكنها تركتها عندهما، عندما رجعت للأردن. لم أسترجع الآلة الكاتبة أبدًا، لكنني لم أهتم بذلك ما دامت أم حمزة لم تحصل عليها أيضًا. لكن لم تكن جميع ممتلكاتي بأمان، فبعد أن رجعت حماتي للأردن، وبينما كنت أغسل الثياب لاحظت أن بطانيتي مفقودة، لم أعر عليها إلا عندما زرنا والدي حمزة بعد ثلاث سنين. فقد قامت حماتي (التي كانت تدعي مرارًا وتكرارًا أنها غير ماهرة في استخدام الإبرة والخيط) بخياطة قماش جديد فوق بطانيتي؛ لتغطي آثار فعلتها، لكنني سحبت خيطًا مفكوكًا، وأزلت قطعة صغيرة من المادة التي تغطيها، وكشفت عن بطانيتي المفقودة.

في أواخر عام ١٩٨٩م كان حمزة يعمل في مركز إنترفيث الطبي في بروكلين. وكان يستيقظ مبكراً، ويفادر المنزل عند الساعة ٧:٠٠ صباحاً، ولا يعود إلا عند الساعة ١١:٣٠ مساءً. وعلى الرغم من كل ذلك الاضطراب في حياتنا الزوجية إلا أنني حاولت أن أحسن علاقتنا، فكنت أعد الطعام له، وأنتظره حتى يرجع للمنزل، لكنه غالباً ما كان يحبطني.

«تتاولي ذلك الطعام يا فدوى، إن أردت، فأنا ذاهب للنوم».

أحببت كوني أمّاً لطفلين، لكن حتى الأمومة لم تساعدني على الهرب من ذلك الشعور بفقدان الحس الناجم عن بقائي طوال اليوم في المنزل كالسجينة. لم يكن أمامي أي مخرج، ففي حال تركت حمزة لن أستطيع إعالة نفسي، ولم أكن لأتحمل العيش بعيدة عن طفليّ. جعلني ذلك أفكر في طرق لأنتحر، عندئذ سوف يعتني حمزة بالطفلين، فعلى الرغم من جميع مساوئه إلا أنه يحب ولديه، ولن يؤذيها أبداً، وربما عندما يكبران سوف يفهمان لماذا فعلت ذلك، في ذلك الوقت كان عمر يوسف سنة وثلاثة أشهر، وأنس ثلاثة أشهر، لذلك لن يطول الأمر حتى ينسياني تماماً، وهكذا أفتعت نفسي بأنهما سيكونان بخير من دوني.

وضعت الولدين في مهديهما، وغنيت لهما برقةً لينا، ثم رتبت غرفة المعيشة، وأعددت الطعام آخر مرة، وتركت كثيراً من أوعية الطعام في الثلاجة. بعد ذلك جلست على مائدة المطبخ، وكتبت رسالة لكل من ولدي، نصفها بالإنجليزية ونصفها الآخر بالعربية طويت الورقتين مرتين، ودسستهما تحت وسادتيهما وكلي حرص ألا أوقظهما، أردتهما أن يعرفا كم كنت أشعر بالوحدة وأنا محتجزة في المنزل وغير قادرة على مصادقة أحد أو الخروج من المحيط الذي كان يتصوره حمزة.

تخيلت، وأنا في تلك الحالة من الجنون المؤقت أن الرسالتين ستبقيان بحوزة ولدي، عندما يكبران كناية ليفهماها، وربما لن يرى حمزة الرسالتين، وسيطوي مفارش مهديهما، والرسالتان مخبأتان في الداخل، ثم سيحتفظ بهذه المفارش في صندوق يحتوي على ملابس الطفلين وألعابهما، وبعد سنين عدة سوف يفتح يوسف وأنس صناديقهما ليعطيا ما فيهما لأطفالهما، عندئذ سيجدان رسالتي، ويعرفان مني مباشرة لماذا فعلت ما فعلت، وسيكتشفان أول مرة أن ما أخبرهما أبوهما ووالداه عني طوال حياتهما مجرد كذب.

ذلك اليوم كان يوسف وأنس ينامان نومًا عميقًا، وعرفت أنهما لن يستيقظا إلا بعد حين. فنزلت بصمت إلى التسوية، وبحثت عن مواد كيميائية يمكن أن تقتلني إن شربتها، ثم سكبت خليطًا من مبيض الأقمشة ومنظفات الحمام وسم الصراصير، ورفعت الكأس لشفتي لأشربه، ثم أملت رأسي للخلف، وأخذت نفسًا عميقًا، وعيناي مغلقتان.

بدأ أنس بالصراخ، لِمَ استيقظ مبكرًا؟ أمسكت الكأس برهة على أمل أن يعود للنوم، لكنه استمر في البكاء، لم أستطع أن أترك طفلي يبكي وحيدًا في مهده، فلن يعود حمزة للمنزل إلا بعد ساعات، ولن يفهم أنس لماذا لم أحضر لتفقدته. لذلك وضعت الكأس، وذهبت إلى أعلى، فكرت في أول الأمر أنني سأرجع أنس لينا، وسيكون لدي الوقت الكافي لأقتل نفسي قبل أن يرجع حمزة؛ لذلك هزرت سرير أنس، وغنيت له حتى أغلق جفنيه النعسانين، لكن في كل مرة يسكت فيها يبدأ بالبكاء من جديد؛ لذلك أخذت الرسالتين من تحت وسادتي الولدين، وأعددت العشاء لحمزة، وأنا منكسرة الفؤاد.

في اليوم المقبل وضعت الولدين في فراشهما ليأخذا قيلولة، ووضعت الرسالتين مرة أخرى تحت وسادتيهما، وعندما ناما ذهبت إلى المطبخ، وأخرجت سكينًا من الدرج، ثم ذهبت إلى التسوية، ونزعت قميصي محاولة أن أغرس السكين في صدري، لكن انثنى نصل السكين، وارتد بعيدًا عني، فالتقطته، وشرعت أحاول مرة أخرى.

في تلك اللحظة سمعت وقع قدمي يوسف متجهًا نحو التسوية ينزل السلم درجة درجة، ويده ممسكتان بالدرابزين.

«يوسف، لماذا غادرت الفراش؟ أنت دائمًا تنام جيدًا خلال قيلولتك!».

«ماما، ماما. بو، بو.»

«هل تريد كأسًا من الماء؟».

أومأ يوسف برأسه، وعانقني لافًا ذراعيه حول رقبتني، حملته وصعدت به إلى أعلى، ووضعت السكين في مكانه والدموع تنهمر من عيني، ثم مزقت الرسالتين، فولداني يحتاجان إلي، ولا أستطيع تركهما بغض النظر عن الألم الذي أعانيه بسبب والدهما، وهكذا رجعت إلى حياتي الروتينية والمؤلمة.

بعد ذلك بمدة قصيرة قرر حمزة أن عمله في مركز إنترفيث الطبي لا يعجبه؛ لأن المسافة إلى هناك بعيدة، ولا يجني ذلك القدر من المال الذي يستحقه؛ لذلك بدأ يبحث عن عمل جديد دون أن يهتم بموقعه، أو بقربه من أحياء سكنية جيدة، ما دام الراتب أفضل. لكنه لم يعرف كيف يكتب السيرة الذاتية؛ لذلك وافقت أن أكتب واحدة له بخط يدي، ثم يطلب من أحد زملائه في العمل أن يطبعها له؛ لأن ألتنا الكاتبة معطلة الآن، وهو لا يجيد الطباعة، وفي مساء اليوم المقبل عاد للمنزل يحمل بفخر خمسين نسخة عن سيرته الذاتية والكتاب التوضيحي، إضافة إلى خمسين ظرف بريد عليها عناوين مستشفيات وعيادات في جميع أنحاء الولايات المتحدة. أمضينا بقية الأمسية نغلق الظروف بإحكام، ونضع طوابع البريد عليها؛ ليتمكن حمزة من إرسال طلبات التوظيف في الصباح الباكر.

وبعد مدة قصيرة من إرسال هذه الطلبات تسلّم حمزة عرضًا ليعمل في عيادة صغيرة في أونيدا، وهي بلدة صغيرة في المنطقة الشمالية لولاية نيويورك. وكان على حمزة أن يعمل مع طبيب أمريكي اسمه (ستيف) وطبيب عراقي اسمه (رافاييل).

عندما انتقلنا إلى بلدة أونيدا عشنا في الطابق الثاني من عمارة سكنية. وبينما كان حمزة يعمل في العيادة كان علي البقاء في الشقة، لكن كان علينا استخدام غرفة غسيل مشتركة في الطابق الأول؛ لذلك سُمح لي بالنزول مع الأسف لغسل الثياب.

كنت أنزل لغرفة الغسيل كل يوم، فقد كان هناك الكثير من الملابس المتسخة التي تحتاج إلى غسيل؛ لأن لدي ولدين صغيرين، إضافة إلى حمزة وملابس بطبيعة الحال. لكن كان هذا عذرًا لأخرج بضع دقائق من الشقة، ثم ما لبثت أن لاحظت أن أحد أبواب الشقة في الطابق الأول مفتوح دائمًا. وبعد أسابيع عدة من ذهابي كل يوم إلى غرفة الغسيل خرجت سيدة عجوز من الشقة المفتوحة، وبدأت بتريديد الحديد معي، ولم تمضِ مدة طويلة حتى أخبرتني تلك السيدة بكل شيء عن حياتها، ولماذا تترك بابها مفتوحًا ليلاً ونهارًا.

«أنا أعيش وحدي الآن، وأخاف أن يحدث شيء لي، فليس لي أحد يطمئن علي، وأنا لا أذهب إلى أي مكان، ولن يلاحظ أحد إن أصابني مكروه، ولم أستطع النهوض؛ لذلك أترك الباب مفتوحًا، ففي حال سقطت على الأرض سوف يسمعي أحدهم، عندما يمرّ بالباب في طريقه إلى غرفة الغسيل، أو إلى شقته، ويساعدني».

شعرت بالحزن نحو هذه السيدة التي لم يكن لديها أحد ليطمئن عليها. وشعرت بأني سجيينة؛ لأنني لا أستطيع مغادرة شقتي، لكن على الأقل إذا حدث لي شيء سوف يلاحظ حمزة ذلك، ويأخذني للمستشفى، وبعد أن عدت إلى شقتي أعددت بعض الأرز والدجاج، ووضعت في وعاء صغير؛ لآخذه إلى صديقتي الجديدة. طرقت على بابها على الرغم من أنه كان مفتوحاً؛ لأنه من الخطأ الدخول دون استئذان، لم تسمعني في أول الأمر، لكنها بدت سعيدة عندما رأنتي.

«تفضلي، واجلسي!».

«فقط بضع دقائق، فطفلاي نائمان في الأعلى.».

بعد ذلك كنت آخذ الطعام إليها من حين لآخر، لكنني لم أعد شيئاً يحتاج إلى مقادير كثيرة؛ حتى لا يلاحظ حمزة فقدان شيء من المطبخ. وفي مساء أحد الأيام غادرت الشقة مع حمزة والطفلين، فرأتنا صديقتي الجديدة، وخرجت لتسلم علينا.

«آه يا فدوى، إذن هذه هي عائلتك! زوجتك طيبة جداً يا سيدي، فهي دائماً تمر علي لتراني، وتحضر لي شيئاً أكله!».

ابتسم حمزة قليلاً، فهذه هي طريقته البائسة لإظهار الغضب، لكنني عرفت أنه لن يسمح لي بزيارة صديقتي ثانية، وبالفعل عندما عدنا إلى الشقة كان غاضباً؛ لأنني خبأت هذا الأمر عنه.

«هل هناك أحد آخر يزورك يا فدوى؟».

«لا، كل ما في الأمر هو أنني شعرت بالأسى نحوها، فهي سيدة عجوز، وليس لديها أحد تتحدث معه.».

«لكنك تعرفين أنني لا أحب أن تتكلمي مع الجيران، وأنا غائب!».

«حسناً يا حمزة، لن أزورها ثانية.».

بدأت أشعر بالملل القاتل؛ لذلك سألت حمزة إن كنت أستطيع أخذ دروس في اللغة الإنجليزية؟، فعلى الرغم من أنني كنت أتعلم الإنجليزية منذ المدرسة الابتدائية إلا أنني كنت في حاجة إلى ممارسة المحادثة مع الناس؛ حتى أتحدث بطلاقة. وافق حمزة، وسأل



إحدى الممرضات في العيادة، التي أخبرته عن كنيسة محلية تقدم برنامجًا تطوعيًا. وهكذا كانت تأتي إلى شقتنا سيدة متقاعدة عن العمل لتعطيني دروسًا مرة في الأسبوع. لم تكن تمتلك سيارة؛ لذلك كان حمزة يحضرها لشقتنا، ثم يرجعها إلى منزلها، وكان حمزة يعتني بالطفلين خلال دروسي التي كانت مدتها ساعة تقريبًا.

سألنتي المتطوعة أسئلة عدة؛ لتساعدني على تحسين مهاراتي الشفهية. فكانت تدون ملاحظات عن هواياتي، مثل الخياطة والطبخ والأزياء. وفي الأسبوع المقبل أحضرت كتاب طبخ؛ حتى أتعلم أسماء الأطعمة والوصفات باللغة الإنجليزية، وفي أسبوع آخر أحضرت بعض رسوم التتريز. ثم أخبرتني عن صديقة لها تمتلك صالونًا.

«إن كنت ترغبين أستطيع أن أحضرها معي في المرة المقبلة؛ لتعلمك أسماء المنتجات وتصنيفات الشعر».

عرفت أن ذلك لن يسعد حمزة، لكنني شعرت بالخجل من أن أخبرها بأي شيء عن وضعي، لذلك شكرتها فحسب. فهما ستأتيان يوم الأربعاء في سيارة صديقتهما، وسيكون حمزة في العمل، ولن يعرف أنهما هنا، وهكذا جلسنا ثلاثتنا حول مائدة المطبخ، واستمتعت بالحديث، وشعرت بالسعادة، لكن كانت هذه السعادة منغصة بالهواجس، فكلما شعرت بالسعادة كنت أعرف أن شيئًا سيئًا سيعكر سعادتي.

أعددت شيئًا مع نعناع طازج كنت أزعه على الشرفة، وقامت السيدتان بتعليمي أسماء منتجات المكياج المختلفة.

«إن بشرتك رائعة جدًا يا فدوى!».

«شكرًا».

«ما رأيك في أن نضع المكياج عليك؟».

أجبت مترددة: «لست متأكدة».

«آه، لكنك تبدين جميلة جدًا!».

لن يرجع حمزة للمنزل قبل الظهر، لذلك وافقت، كنت أنظر إلى الساعة طوال الوقت، لم يتبق لدينا إلا ساعة، فعندما انتهينا حاولت أن أركض إلى الحمام لأغسل وجهي.

«لا، اتركه. سيعجب ذلك زوجك».

وعند الساعة ١١:١٠ صباحاً سمعت المفتاح يدور في قفل الباب. رحبت السيدتان بحرارة بحمزة، الذي كان مستغرباً من وجودهما.

«انظر إلى فدوى! إنها تبدو جميلة جداً».

لم يقل حمزة شيئاً، ولا حتى بعد أن ذهبنا. سألته إن كان يريد تناول الغداء، وأنا أرى الانزعاج يزداد في ملامح وجهه؟

«لا، لست جوعان».

استخدم المرحاض، ورجع إلى عمله، وفي المساء أخبرني بأني لن آخذ دروساً في اللغة الإنجليزية بعد الآن.

«لكن ماذا سأقول لها يا حمزة؟ فلا تفسير لدي!».

«أخبريها بأننا سننتقل إلى مكان آخر، وليس لديك وقت».

كانت تلك حجة معقولة؛ لأننا كنا نبنى منزلاً في شيتيناجو، وهي بلدة مجاورة لبلدة أونيدا. لم نكن سننتقل إلى هناك إلا بعد أشهر، لكن لن تعرف صديقتاي هذا أبداً. جعلني ذلك أشعر بالفراغ، فقد كنت أنتظر كل أسبوع حتى يأتي يوم الجمعة، وأتحدث مدة ساعة مع شخص ما.

مر الوقت بسرعة، وانتقلنا إلى منزلنا الجديد في شيتيناجو. كان المنزل كبيراً؛ لأن حمزة كان يخطط أن ينتقل والداه للعيش معنا في أثناء مرحلة كبرهما. كنت أكره استغلال حمزة هذا المنزل حجة ليبعد عني كثيراً من الأشخاص الذين كانوا طيبين معي، لكنني أصبحت أحب ذلك المنزل. فقد كان دافئاً وجميلاً، ويحتوي على كثير من غرف النوم وغرفة معيشة فيها مستودع وغرفة عائلة منفصلة. وكان للمطبخ نافذة كبيرة وباب يفضي إلى فناء ضخم، وكان للأطفال غرفة لعب كبيرة، أما الفناء الخلفي فكان يحتوي على بستان وحديقة فيهما أشجار تفاح وإجاص وطماطم وأعشاب.

بينما كنا نحزم أمتعتنا جاءني زوار غير متوقعين. فعند الساعة ١١:٣٠ صباحاً رنّ جرس

الباب، ذهبت لأنظر من خلال ثقب الباب، فرأيت امرأة تحمل طبقاً، ففتحت الباب.



«مرحباً، أنا جارتك جوليا. أنا أعيش في ذلك المنزل».

ثم أشارت بأصبعها إلى منزل يبعد نصف نصف من البيوت.

«اسمي فدوى».

تصافحنا.

«تشرفت بمقابلتك. أحضرت لك كعكة خبز الموز؛ لأرحب بكم في حيننا. أسمع صوت

أطفالك».

«نعم، لدي ولدان».

«وأنا لدي بنتان عمر الأولى ثلاث سنوات والثانية أربع سنوات. نحن نرحب بطفليكم في

أي وقت إن أرادوا المجيء للعب مع طفلتينا».

دعوتهما لتناول الشاي، لكنها كانت مضطرة إلى المغادرة.

بعد ٣٠ دقيقة رنّ جرس الباب ثانية. كانت جارة أخرى على الباب، امرأة أمريكية

مسيحية متزوجة رجلاً يهودياً، وعندما عرفت أنني من فلسطين هتفت، قائلة: «آه، لقد ذهبنا

مرة إلى إسرائيل، إنها مكان جميل! لقد قابلت بعض العرب عندما كنا في القدس، بدوا

أشخاصاً طيبين، أتمنى أن يجدوا طريقة لإحلال السلام هناك».

«شكراً لك. هل تحبين أن تدخلي لاحتساء فنجان قهوة؟».

رجعت هذه السيدة بعد قليل محضرة كعكة، وعرضت علي أن يأتي أولادي للعب مع

أولادها.

رنّ جرس الباب للمرة الثالثة، وكانت جارتني المصرية واقفة على عتبة الباب مع ابنتها

ذات الخمسة أعوام تحمل كثيراً من أطباق الطعام، قابل زوجها حمزة في المسجد من قبل،

لذلك كانا يعرفان أننا آتيان اليوم إلى منزلنا الجديد، أحضرت تلك السيدة طعاماً يكفي

لإطعام عائلتي مدة ثلاثة أيام.

«السلام عليكم: اسمي سهير، وهذه ابنتي سالي».

رحبت بها، ثم رافقتها للمطبخ.

«أعرف أنك مشغولة بالارتحال، وليس لديك الوقت لتطبخي، لذلك أعددت لك بعض الطعام المصري. أمل أن يعجبك. وإذا احتجت إلى المساعدة أخبريني. تحب (سالي) أن تلعب مع أطفالك هذا هورقمي، اتصلي بي».

«ماذا تحبين أن تشربي؟».

«آه، لا تعبي نفسك. في المرة القادمة عندما تستقرون سوف نشرب الشاي مع بعضنا».

رافقتها إلى الباب.

بعد أن استقر بنا المقام في بيتنا الجديد آلت الأمور للأسوأ، ففي صباح أحد الأيام في شهر كانون الثاني عام ١٩٩٢م أصبحت فجأة مريضة جداً. لقد كنت على ما يرام، عندما استيقظت متوعكة قليلاً، لكن لست مريضة بمعنى الكلمة. ذهبت للاستحمام، وانتظرت مع يوسف حتى جاءت حافلة المدرسة، ثم أحضر بعد الظهر باكراً. وبينما كنت ألعب مع يوسف وأنس نحو الساعة ٤:٠٠ مساءً شعرت فجأة بالبرد الشديد، لذلك أغلقت نافذة المطبخ، إذ كانت تدخل هواء بارداً.

عندما عاد حمزة من المستشفى قال دون مبالاة: إنني أعاني الحمى، وأعطاني حبتي دواء، لكن فور ابتلاعي لهما تقيأت، وازدادت الحمى، استلقيت في سريري، وأنا أتوجع من كل حركة. وفي غضون ثلاثة أيام لم أستطع المشي، وانتفخت قدماي، لذلك كنت أزحف على يدي وركبتي للمطبخ؛ لأعد الفطور ليوسف وأنس.

مرت عشرة أيام قبل أن يوافق حمزة أخيراً على أن يأخذني للمستشفى في بلدة أونيدا، وهناك كان علي أن أتكى على ذراعه؛ لأمشي إلى غرفة الطوارئ. كان الأطباء الآخرون مدهوشين لرؤية حمزة.

«ماذا تفعل هنا؟».

ثم رأوني، وأنا لا أستطيع الوقوف وظهري منحني وغير قادرة على الحركة. أحضر اثنان منهم نقالة، وأخذاني إلى الغرفة، وهناك قاموا بمعاينة ضغط دمي ونبضات قلبي، وسحبوا دمًا مني؛ ليجروا فحوصاً عليه، وفي اليوم المقبل لم أستطع الكلام أو إغلاق عيني، وكان علي الممرضة أن تدلك ظهري؛ لتمنعه من الالتواء، ثم أعطتني مسكنات لتخفيض حرارتي، لكن دون جدوى. غسلت الممرضة شعري، ومسدت رأسي محاولة أن تطمئنني.

«سيكون كل شيء على ما يرام. لا تقلقي سوف تغادرين المستشفى، وترين أطفالك ثانية».

حاول الأطباء مدة خمسة أيام إقامتي في المستشفى أن يخفضوا حرارتي، ويكتشفوا ما علتي، لكن في اليوم السادس سمعت طبيباً يخبر حمزة بأنهم لا يستطيعون فعل شيء، ونصح الأطباء حمزة بأن يتصل بعائتي؛ ليزوروني ويدعوا لي. كان ولداي في الثالثة والرابعة من العمر، ولم أرغب في أن يكبرا دون أم. كانت الدموع تنهمر من جفني المفتوحين، فلاحظ الطبيب أنني أستمع، فتحول من الحديث باللغة الإنجليزية إلى الإسبانية، التي كان يتحدثها حمزة؛ لأنه عاش في كولومبيا منذ صغره.

بعد أن أنهى حمزة حديثه مع الطبيب رجع إلى الغرفة، وسألني إن كنت أرغب في رؤية ولدي؟ حركت رأسي قليلاً لأشير إليه بالإيجاب، فأحضر يوسف وأنس إلى غرفتي، ركضا نحوي، وحاولا تسلق السرير بمساعدة أبيهما، ثم جلسا بقربي، وأخبراني عن تجربتهما في أثناء بقائهما مع أحد جيرانا.

قال لي يوسف متذمراً: «أنا أحب خالتو حلوة يا أمي، لكنها لا تقرأ لنا قصصاً قبل النوم، متى سترجعين إلى المنزل؟».

ردد أنس، قائلاً: «نعم! نعم! متى سترجعين للمنزل؟».

بدأ أنس بهز السرير، حاولت ألا أبكي، لكنني لم أستطع إيقاف دموعي، فصعد يوسف وأنس عليّ، ومسحا دموعي، ثم أخبرهما حمزة بأن وقت الرحيل قد حان.

«لكن ستأتي ماما معنا!».

«لا، يا بني، سوف تبقى ماما هنا».

بعد أن غادروا الغرفة علقت ممرضة جهازاً طناناً على ملابسي، وأخبرتني بأنه عندما أريد شيئاً، فما علي إلا أن أحرك رأسي ليشغل الجهاز، وعندما أصبحت وحيدة فكرت في يوم القيامة، وماذا سيحدث ليوسف وأنس بعد رحيلي، فبكيته وفكرت أيضاً في حياتي، محاولة أن أعدّ حسناتي على أمل أن تفوق سيئاتي عدداً. ثم بكيت، وبكيت حتى نمت.

عند نحو الساعة ٤:٠٠ صباحاً جاءت ممرضة لغرفتي لتعطيني المزيد من الدواء، وبينما كانت تضبط القسطرة الوريدية على يدي جلست، واختفت أعراض مرضي فجأة. غادرت الممرضة الغرفة لحظة، معتقدة أنها أتت إلى الغرفة الخطأ. ثم عانقت قرآني الذي أحتفظ به في حقيبتي، ووضعه حمزة تحت وسادتي في أثناء مرضي.

رجعت الممرضة مسرعة إلى الغرفة.

«سيدة حمدان! هل أنت السيدة زوجة الدكتور حمدان! أنت بخير!» في أمريكا ينادون المرأة باسم عائلة زوجها.

أسرع الطبيب إلى الغرفة يلهث، وسأل الممرضة عن ماهية الدواء الذي أعطتني إياه، ونجح في شفاء مرضي؟

«لم أفعل أي شيء غير اعتيادي، ولم أعطيها أي شيء أبداً. كل ما فعلته هو أنني أتيت إلى الغرفة، ورأيت فجأة أن الحمى اختفت».

بعد شهرين، وبينما أنا مع حمزة والأولاد نتبضع التقيت مصادفة ممرضة بدت مألوفة لي، لكنني لم أميزها.

«أريد أن أخبرك يا سيدة حمدان، بأن الأطباء لا يزالون يدرسون ملفك الطبي، محاولين أن يفهموا ما حدث ذلك الصباح، فهم لا يعرفون ما سبب تلك الحمى التي أصابتك، ولا كيف اختفت».

بعد ذلك خفف حمزة قيوده قليلاً، وسمح لي بحضور اجتماع أسبوعي للنساء في المسجد، وشعرت بالارتياح لخروجي من المنزل، حتى لو يوماً واحداً في عطلة نهاية الأسبوع.

وفي شهر أيار جاءت حماتي من الأردن إلى شيتيناجو؛ لتلتقي حمزة، ويسافرا إلى مكة المكرمة لتأدية مناسك الحج، وكان علي البقاء وحيدة في نيويورك لأعطني بابني، بقي حمزة وحماتي هناك من نهاية شهر أيار حتى منتصف شهر حزيران، ثم عادا. وخلال الأسابيع القليلة من غيابهما شعرت بالحرية، فقد كنت أستطيع التحدث عبر الهاتف يومياً مع النساء، وأحياناً يحضرن لزيارتي في البيت، وهؤلاء النساء هن اللواتي تعرفت إليهن في المسجد، وكن يسألنني إن كنت أحتاج إلى أي شيء؟، وفي غضون ذلك عقدت صداقة حميمة مع امرأة

اسمها (جميلة) كان لديها طفل صغير، وكنا نتحدث على الهاتف ساعات طويلة بعد أن يغفو أطفالنا في القيلولة.

وعندما حل العيد اتصلت بي جميع النساء في المسجد يسألن إن كان بالإمكان إقامة حفلة في منزلي؟ كانت هؤلاء النساء من الأردن وفلسطين والسعودية وسوريا والولايات المتحدة والكويت، وكُنَّ يعيشن في شقق صغيرة، أما أنا فكان بيتي كبيراً، وله فناء خلفي واسع؛ لذلك وافقت على طلبهن، وكنت سعيدة بوجود كثير من النساء يضحكن، ويأكلن في ذلك الفناء الذي غالباً ما كان مهجوراً. قمت بتزيين المنزل بسلاسل بلاستيكية من الأضواء، وجلبت النساء الطعام معهن، وفي أثناء الحفلة أخبرتنا امرأة سعودية بأن زوجها كان مدهوشاً؛ لأنها استيقظت متحمسة في الصباح الباكر، فقد كان من عاداتها أن تبقى في الفراش حتى الساعة ١٠:٠٠ صباحاً.

«أخبرت زوجي بأنني أحب أن أرى فدوى، فأنا أشعر بأنها أختي».

لم تدم حريتي وسعادتي الجديدة طويلاً، فبعد أسبوعين تقريباً جاء (حماتي) وأختان من أخوات حمزة لزيارتي، وحضر أيضاً إخوة حمزة الثلاثة للزيارة، وجميعهم يعيشون في نيويورك، وكان علي الطبخ لهم وتلبية جميع احتياجاتهم. وكانت (أمل) حينها في عامها الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين، ووقعت على عاتقي مسؤولية ثانية، وذلك بمنعها عن إيذاء نفسها. وفي إحدى الليالي، وبينما كنت نائمة ذهبت (أمل) متسللة إلى الكراج، وشغلت السيارة، وعندما استيقظ حمزة في الصباح وجد أن بطارية السيارة قد نفذت.

علمت أخيراً أنني حامل مرة أخرى، والسبب الوحيد لهذا الحمل هو أن والدي حمزة أخبراه بأنه علي أن أنجب طفلاً آخر، فذهبت إلى الطبيب لأجري فحوصاً، وبعد أن رجعت وجدت خزانة الأدوية مفتوحة، لم تأخذ (أمل) شيئاً، لكنني قررت أن أضع أفضلاً عليها من باب الحرص.

ذهبت في عطلة نهاية الأسبوع إلى المسجد، ورافقتني (إيرما) لكن كانت حماتي منزعة لأن حمزة سمح لي بالذهاب، بينما لا يسمح لها زوجها بذلك، إلا أنني تجاهلت اعتراضها، وذهبت إلى المسجد. وعندما عدت سألت حماتي حمزة بصوت متذمر: لماذا قمت بإغلاق جميع الأبواب؟

«أنا لست حرامية يا حمزة، عليها أن تثق بي».

وأيدها (حماتي)، قائلاً: «حتى لو تركت فدوى ذهبها على الأرض لن تأخذه أمك».

لم يقل حمزة شيئاً، أما أنا فقد حاولت قدر المستطاع أن أتصرف على سجيتي معهم، سألت حماتي عن أحوالها، وحاولت أن أساعدها، أثار ذلك فيها، واعتذرت عن تعليقاتها، على الأرجح لأنني كنت حاملاً.

في شهر آب ذهبنا في رحلة عائلية إلى شلالات (نياجرا). استأجر حمزة سيارتين كبيرتين، ونزلنا في فندق مدة أربعة أيام، بقيت أنا في غرفة مع أبنائي، وبقي حمزة في غرفة أخرى مع عائلته، وعندما زرنا الشلالات وقفت وحيدة بعيداً عن حمزة، أدخلني هدير الماء والضباب الأثري في حالة تشبه الحلم، ووجدت نفسي أفكر في أحمد، حتى بعد كل تلك السنين. وتساءلت كم ستكون حياتي مختلفة لو تزوجته بدلاً من حمزة؟، وكيف سيكون أولادي لو كان أحمد والدهم؟ اعتقدت أنني رأيت وجه أحمد في الماء، وانحنيت للأمام لأنظر نظرة أقرب. (سيدتي! سيدتي!).

صرخ المتفرجون ليعيدوني إلى الواقع، ثم نقرني أحدهم بأصبعه على كتفي، قائلاً: «هل أنت بخير؟».

«نعم، نعم. أنا بخير، شكراً لك».

انسحبت بخجل، وانضمت لعائلي، تاركة ورائي تخيلات عن الحياة المختلفة التي كنت سأحظى بها لو لم أجبر على تزوج حمزة.

وأخيراً في نهاية شهر أيلول قررت عائلة حمزة أنه حان الوقت للرجوع للأردن. وخطط والداه للانتقال إلى فلسطين ليمضيا مدة تقاعدهما وبقيّة حياتهما هناك. فقد كانا بينيان بيتاً ضخمًا هناك، وكانا على أحرّ من الجمر للانتقال للعيش فيه، شكرتهم على زيارتهم، وتمنيت لهم رحلة آمنة.

في بداية عام ١٩٩٣م عادت مرشدة مجموعة النساء في المسجد إلى بلدها لبنان، وطلبت مني النساء الأخريات أن أحلّ محلّها. كنت في ذلك الوقت على وشك ولادة طفلي الثالث، لكنني وافقت، وبدأت أحضر محاضرات عن الإسلام والقرآن.

وعندما حان الوقت تقريباً للولادة اتصل حمزة بأخيه حسن، الذي كان، ولا يزال طالباً في الجامعة في مقاطعة كوينز.

«فدوى على وشك الولادة. هل تستطيع أن تحضر هنا، وتعتني بيوسف وأنس في أثناء بقاء أمهما في المستشفى؟».

وافق حسن على أن يعتني بولديّ أخيه وفي اليوم المقبل استقل قطاراً من كوينز إلى شيتانكو، وأحضره حمزة بسيارته من المحطة.

في ٣ نيسان ١٩٩٣م ولدت أول بنت لي، وأسميتها (سارة). وكنت أعرف منذ يوم حملي الأول بها أنها ستولد أنثى؛ لأنني رأيت في منامي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبرني بأن هذا الطفل سيكون أنثى.

بعد أن ولدت سارة اكتشفت أن الناس في هذه البلدة الصغيرة مختلفون عن الناس في مدينة نيويورك. فقد كانوا اجتماعيين وطيبين، وحاولوا مساعدتي بقدر الإمكان. وكانت النساء اللواتي تعرفت إليهن في المسجد يحضرن لي طعاماً طازجاً كل يومين، حتى إن جارة أمريكية الأصل عرضت علي أن تطبخ لي الطعام بعد أن ركل ابنها الكرة نحو فئاتنا الخلفي. طارت الكرة فوق السياج، ودخلت فناء بيتي.

قرعت والدته جرس الباب: أنت تبدين متعبة. هل أنت مريضة؟».

«لا. لقد غادرت المستشفى البارحة ولدت طفلة اسمها سارة».

«أنا لم أعرف أنك كنت حاملاً! علينا أن نطبخ لك!».

«شكراً لك، لكن لدي ثلاثة مليئة بطعام طبخته صديقتي لي».

لم أستطع إخبارها بأن زوجي لا يسمح لي بزيارة الجيران، أو التواصل معهم. لذلك اعتذرت، قائلة: إنني مشغولة بأطفالي والاعتناء بمنزلي، لا أدري إن كانت قد صدقتني أم لا، لكن لم يخطر ببالي شيء آخر أقوله لها، باستثناء الحقيقة التي لم أستطع البوح بها.

كنت حريصة على تجنب جاراتي والتفكير في أعذار مقنعة عندما تدعوني صديقاتي في المسجد لمناسبات غير قراءة القرآن، وكنت أشغل نفسي بالاعتناء بولديّ وابنتي الرضعية. كانت بقية تلك السنة مليئة بتغيير الحفاضات والإرضاع وإرشاد مجموعة النساء أيام السبت.

وقد ركزت جهودي على تربية أولادي تربية حسنة، وحلمت بمستقبلهم كلما شعرت بالحزن على كل ما فقدت.

اعتمدت أيضًا على إيماني لتحمل حياتي الزوجية. فالقرآن يبين أن جميع المؤمنين سوف يُبتلون، ويُمْتَحَنون، ولا نعرف متى أو أين أو أي نوع من الامتحان سيواجهنا، لكنه سيحدث للجميع، ويمكن أن يكون هذا الامتحان صعبًا أو سهلًا، إلا أنني أشعر بالراحة، عندما أفكر في مواجهة هذه الامتحانات والصمود، سوف يجعلني إنسانة أقوى، ومهما يفعل حمزة بي، فإن الله سيرى كم أعاني، وكيف أستجيب لتلك المعاناة.

